مَجلّة فصليّة محكّمة

تُعنى بعلوم كتاب نهج البلاغة
وبسيرة الإمام علي عليه السلام وفكره

تصدر عن

الأمانة العامّة للعتبة الحسينيّة المقدّسة

مؤسّسة علوم نهج البلاغة

مُجازَةٌ من وِزارَةِ التَّعْليمِ العالي والبَحْثِ العِلْميّ
مُعْتَمَدةٌ لأغراضِ التَّرْقِيَةِ العِلْمِيّة

السّنة الأولى – العدد الثاني
١٤٣٨هـ – ٢٠١٦م

الحجاج في خطبة الجهاد
لأمير المؤمنين (عليه السلام)

م. د. أحمد عبيس المعموري
الكلية التربوية المفتوحة- بابل

Argumentation in the Al-Jahad Sermon of Imam Ali

Lecu. Dr. Ahmmed `Abeiss Al-Ma`amori

The Open Educational College\Babylon

ملخص البحث

مدار البحث هو في طبيعة الحِجاج الوارد في خطبة الإمام علي (عليه السلام) المسماة بـ (خطبة الجهاد) وهي احدى خطب نهج البلاغة. حاولنا فيه تلمس حجاج الإمام علي مع أصحابه المتخاذلين عن الجهاد المؤثرين للراحة المقترنة بالذل والهوان.

أما الحِجاج- وهو بنية دلالية معتمدة على أبنية لغوية تستعمل لغايات بلاغية تداولية إقناعية بفكرة ما-فقد وجدناه بوضوح في هذه الخطبة وشخّصنا خمسة انواع منه هي (حجج سببية وفيها نجد حرص الإمام (عليه السلام) على ربط عواقب الأمور بأسبابها، وأن ما حصل لهم ويحصل إنما هو بسبب تركهم الجهاد، فيحتج عليهم ببيان فضله وعواقب تركه) و(حجج مقارنة: قصد فيها الإمام في مواضع كثيرة في الخطبة إلى حجاجهم عن طريق مقارنة تخاذلهم وهم على حق بحال أعدائهم المتوحدين المجتمعين مع كونهم على باطل، ومقارنة حالهم؛ يُغار عليهم فلا يغيرون ويُغزون فلا يغزون) ، و(حجج وقائع، مبنية على الحجاج بوقائع حصلت وتحصل، ويؤيدها العقل والمنطق) و(حجج استدلالية، أساسها الاستدلال بأقوال سابقة له ينبههم فيها إلى النتائج الوخيمة التي تنالهم بسبب تركهم الجهاد) و(حجج حوارية، قوامها الحجاج بحوار سابق له معهم).

Abstract

The Keystone of research is to study the nature of Argumentation wich is contained in the sermon of Imam Ali (As) named (Jihad speech) It is one of the Nahj sermons. We tried to touch the Argumentation of Imam Ali with his companions defeatists for influential Jihad. Who are preferred to rest with humiliation and shame.

The Argumentation is a structure based on architecture language used for the purpose of rhetorical deliberative persuasive idea of what has found clearly in this sermon, there are five types of argumentation (the argument of causality where we find that Imam links the consequences of things with their causes so what happened and got because they leave Jihad so he is argued they made a statement bounty and the consequences of leaving).(comparison arguments Imam Ali makes a comparsion between their dispersed although they are rights with their enemies who are united although they are void).

(Facts arguments) which are based on the convictions of up scale in its correctness supported by reason and logic).(There is also videntiary arguments which is based inference statements precedented alert them to the disastrous results from their leaving of Jihad).(Dialogic arguments which is based on argumentation of the orbit time).

مقدمة البحث

يشكل تُراث الإمام علي (عليه السلام) في نهج البلاغة، أو في غيره مكنزاً ثرياً صالحاً لمزيدٍ من البحوث والدراسات، ولاسيما وفق المناهج والتيارات الحديثة أو من زوايا مختلفة تتيحها تيارات النقد الأدبي فتحقق أهدافها، سواء ما كان ذا صلة بعلم الإمام الوافر ومعرفتهُ بمكنونات البشر، أو إدراكه لعواقب الأمور ورجاحة رأيه، أو ما كان متعلقا بأسلوبه المتضمن أفصح الألفاظ المقترنة بأدق المعاني، والمدلولات، فكان ذلك هدفاً للباحثين ليلجوا مضمار كلامه، ويجعلوهُ ميداناً لبحوثهم.

ورأيتُ أنْ أخوضَ في نصٍّ من نصوص الإمام علي (عليه السلام) وَرَدَ في نهج البلاغة وهو خطبته المسماة ب(خُطبةُ الجهادِ)، التي يدعو فيها (عليه السلام) أصحابه إلى الجهاد بعد أن بانَ لهُ تخاذلهم عنه. وآثرتُ أن أدرسَ هذا النصَّ من زاويةِ نظرٍ حِجاجية بعد أن وجدتُهُ ثرياً بآليات الحجاج المختلفة.

ووجدتُ هذا البحث طريقا في خدمة تراث الإمام علي (عليه السلام) الذي يستحق الدراسة والتحليل لأنه يمثل قمة في البيان والإبلاغ، ومن شأنه أن يسلط الضوء على علم الإمام وحكمته وإدارته لشؤون الحكم في خلافته، ولا سيما أن النصَّ في سياقاته يبدو صادراً منه في تلك الحقبة.

مفهوم الحِجاج

الحِجاج فن قائم على إقناع الآخر والاستدلال عليه بشتى الطرق والأساليب معتمدا على ضرب بعض المسلمات الدنيوية، والاحتجاج ببعضها على سلوك الآخرين، وقد عرّفه أرسطو بأنه « فن الإقناع أو مجموعة التقنيات التي تحمل المتلقي على الإقناع أو الإذعان والتسليم»[1]، وهو أُسلوب استدلالي يريد فيه المتكلم بيان رأي أو فكرة ما ويوجهه نحو المخاطب بقصد إقناعه، ويعتمد فيه عمليات عقلية استدلالية من خلال تقديم بعض المسوغات والحجج التي تؤيد فكرته

وتزيد من إثباتها في نفوس المخاطبين. ولن يكون ذلك بمعزل عن توظيف الإمكانات اللغوية وأساليبها التي تشكل سلاحا آخر في الحِجاج الذي هو «درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم بما يُعْرَضُ عليها من أطروحات أو أن تزيد في درجة ذلك التسليم»[٢] وغايتها عندهما « أن يجعل العقول تُذعِنُ لما يطرحُ عليها أو يزيدَ في درجةِ ذلك الإذعان، فأنجعُ الحِجاج ما وُفِقَ في جعل حدّة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الامساك عنه، أو هو ما وُفق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»[٣].

ولا يمكن تصور وجود متكلم يرسل خطابه من دون هدف محدد أو غاية مقصودة، لذلك الخطاب وقد يكون غايته التأثير أو الإقناع أو كلاهما معا، عن طريق الحجج اللغوية أو غير اللغوية كالإشارات والإيماءات، لذلك يحمل كل خطاب حجاجا ما، والحجاج هو « الآلية الأبرز التي يستعمل المرسلُ اللغةَ فيها وتتجسد عبرها استراتيجية الإقناع»[٤].

الخطبة

لقد ركز في مخيلتنا أنّ لكل فعل ردة فعل، ومن هذا المنطلق أرى أنّ خطبة الجهاد للإمام علي (عليه السلام) لم تأت بهذه الصورة والكيفية اعتباطا أو جاءت فقط لبيان قيمة الجهاد، بل جاءت رداً على موقفٍ متخاذلٍ من الجهاد لَمَسَه في نفوس أصحابه في سنوات حُكْمِهِ التي شهدتْ مزيداً من الصراعات والأزمات والحروب التي افتعلها أعداؤه ممّن لم يرق لهم أن يتولى أمور الخلافة ولو بعد حين، فاجتمعوا على أن يصرفوها عنه ما استطاعوا، لكن المسلمين اجتمع هذه المرة أمرهم على الإمام (عليه السلام) بعد أن شهدوا بأعينهم حرص قريش على استرداد الحكم بعد وفاة الرسول (صلّى

الله عليه وآله) واستبدادهم به حتى بلغ الأمر سوءا لا يحتمل في عهد الخليفة عثمان بن عفان، فسادت الفوضى وتسلط أقرباؤه على الناس وأثروا على حساب المسلمين، فلم ير هؤلاء بداً من أن يتكالبوا على الإمام صاغرين مذعنين يطالبونه بتولي أمورهم، بوصفه ملاذاً وحيداً لهم.

لكن طلاب السلطة في زمن خلافته كانوا أشد مكرا ودهاءً فهم إذ وقفوا فرحين بما آلت إليه الأمور في زمن الخليفة عثمان بن عفان بل مشاركين في سوء الأوضاع نهضوا ليطالبوا بالثأر من قتلته، وبهذه الحجة وغيرها نشروا الفتن وتمردوا على سلطة الإمام، وما كان منه (عليه السلام) إلّا أن يتصدى لهم في حرب الجمل وصفين والنهروان. وقد لمس (عليه السلام) من أصحابه التقاعس والخضوع وإيثارهم الراحة والذل على الجهاد والعزة، وهو يرى أعداءه يحاولون أن ينحرفوا بالإسلام عن مساره الصحيح، فادرك خطورة الأوضاع وقد بدت تنذر بتصدّع كيان الدولة الإسلامية وهو حريص أشد الحرص على رأب الصدع وإخماد جذوة الفتن، وهو ينظر بعين الحانق الغاضب على أهل الشام وهو يوغلون في غيّهم وحقدهم ويبثون بذور التمرد والشقاق والعصيان على خلافته (عليه السلام)، وينظر بعين أخرى ملؤها الحسرة والألم إلى أصحابه المتخاذلين عن الجهاد بوصفه السبيل لعزتهم ولرد الضيم عنهم، وفي ظل هذه الأجواء كانت خطبته في الجهاد المتضمنة صورا عديدة من الحجاج. وفيما يلي نصها:

في الحث على الجهاد وذم القاعدين

« أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ وَهُوَ لِبَاسُ التَّقْوَى وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ وَجُنَّتُهُ الْوَثِيقَةُ فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ وَدُيِّثَ بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ

النَّصَفَ.

أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً وَقُلْتُ لَكُمُ اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللَّهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ.

فَلَوْ أَنَّ امْرَأً مُسْلِماً مَاتَ مِنْ بَعْدِ هَذَا أَسَفاً مَا كَانَ بِهِ مَلُوماً بَلْ كَانَ بِهِ عِنْدِي جَدِيراً فَيَا عَجَباً عَجَباً وَاللَّهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللَّهُ وَتَرْضَوْنَ فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ كُلُّ هَذَا فِرَاراً مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ فَإِذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ وَاللَّهِ مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ. يَا أَشْبَاهَ الرِّجَالِ وَلَا رِجَالَ حُلُومُ الْأَطْفَالِ وَعُقُولُ رَبَّاتِ الْحِجَالِ لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللَّهِ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً.

قَاتَلَكُمُ اللَّهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ حَتَّى لَقَدْ قَالَتْ قُرَيْشٌ إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ لِلَّهِ أَبُوهُمْ وَهَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَشَدُّ لَهَا

مِرَاساً وَأَقْدَمُ فِيهَا مَقَاماً مِنِّي؟! لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ وَهَا أَنَا ذَا قَدْ ذَرَّفْتُ عَلَى السِّتِّينَ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ!»(٥)

الحجاج في الخطبة

إنّ نص الإمام (عليه السلام) هذا -حسبما نعتقد- كان نصا مجيبا عن أسئلة مفترضة مسبقاً وعن تساؤلات الآخر أو حواراته الموجهة إلى الإمام (عليه السلام) بشكل مباشر أو غير مباشر، في زمن النصِّ أو قبله، ليبين صحة أمور وبطلان أخرى.

وما دامت خطبة الإمام هي نصٌّ نثري فلا بدّ أنه يعمد إلى الحِجاج العقلي والمنطقي، بعكس ما يكون في الشعر الذي يقصدُ إلى التلميح والتأثير العاطفي، فخطاب الإمام يهدف إلى الإقناع من خلال الاستدلال العلمي الذي لا يتسرب إليه الشك. ويهدف إلى التأثير الذي يريده أن يدفعهم إلى العمل المطلوب وهو حثهم على الجهاد.

ولا بدَّ لكل خطاب حِجاجي مِنْ مقدمات تؤخذ على أنها مسلمات يقبل بها الجمهور، وتحتاج إلى عناية في طريقة عرضها وصياغتها وترتيبها، لأنّ في هذه الكيفية قيمة حجاجية بحد ذاتها فضلا عن مضمون الحجاج. وتدخل مقدمة خطاب الإمام علي في خطبة الجهاد في ضمن المقدمات المستنبطة من مفاهيم دينية بوصف الجهاد فرض ديني متعارف عليه بين المسلمين ولا يمكن لأحد أن يطعن في صحته، لذلك هي مقدمة تحظى بالموافقة العامة لأنها منبثقة عن العقيدة الدينية التي يعتنقها المتكلم والمتلقي.

وقد جاء خطاب الإمام علي (عليه السلام) متضمنا المحاججة لأصحابه، فابتدأ ببيان فضل الجهاد ومنزلته وجزاء من ينهض له أو يستشهد فيه، وعاقبة من يتخلف عنه، فذكر أنّه باب من أبواب الجنة، وقد خصّ به أولياءه المقربين المخلصين، وهو دليل على التقوى، وهذا هو المقام الأول من مقامات الاحتجاج في الخطبة، إذ جعله حجة على أصحابه ممّن ترك الجهاد

وآثر الخنوع والذل. وهذا الوصف لطبيعة الجهاد والتعريف به مطلوب في مطلع الخطبة؛ لأنه من آليات الحجاج الرئيسة، فالتعريف « صورة تستخدم لا على سبيل شرح معنى الكلمة إنما لتبرز بعض المظاهر الحافّة بواقعة ما، مما من شأنه أن يعزب عن ذهن السامع»[٦]. ومادام خطاب الإمام علي (عليه السلام) في هذه الخطبة شفويا فلا بدّ أن يكون مختزلا غير مطوّل، لأنّ المقام ليس مقام إسهاب وتطويل في بسط الحجج مما قد يفقد المتلقي قدرته على التركيز والانتباه وتتبع كل مفاصل الحجاج والعلائق بينها، ومادام كذلك فلا بدّ له أيضا من الانتقاء والاختيار بما يلائم الإقناع والتأثير[٧]. وقد تم عرض المقدمة بأسلوب بلاغي وإبلاغي يحمل الآخرين على الإذعان به، من خلال ما عرف عن الإمام من مقدرة بلاغية تحمل الإمتاع والإقناع في الوقت نفسه.

وفي نظرة تحليلية فاحصة في طبيعة الحجاج في الخطبة نجده مشتملا على خمسة أنواع من الحجج هي: (حجج سببية، حجج مقارنة، حجج وقائع، حجج استدلالية، حجج حوارية). وفيما يلي عرض لهذه الحجج مع مواضعها في الخطبة.

حجج سببية: أساسها الربط الوثيق بين النتائج والأسباب، إذ لمسنا حرص الإمام (عليه السلام) على بيان أن ما يحصل لهم حينئذ له أسباب تكاد تجتمع في قضية واحدة هي تخاذلهم عن الجهاد الذي دعاهم إليه، وفيها يتم تقديم السبب على النتيجة أحيانا، وفي أحيان أخرى يحدث العكس. وفي هذه الحجج يتم إنجاز متواليات من الأقوال تشمل الحجج اللغوية والنتائج المستخلصة منها. وتبدو كل حجة عبارة عن عنصر دلالي يقدمه المتكلم لصالح عنصر دلالي آخر.

ففي قول الإمام (عليه السلام) متحدثا عن الجهاد « فَمَنْ تَرَكَهُ رَغْبَةً عَنْهُ أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ وَشَمِلَهُ الْبَلَاءُ وَدُيِّثَ

بِالصَّغَارِ وَالْقَمَاءَةِ وَضُرِبَ عَلَى قَلْبِهِ بِالْإِسْهَابِ وَأُدِيلَ الْحَقُّ مِنْهُ بِتَضْيِيعِ الْجِهَادِ وَسِيمَ الْخَسْفَ وَمُنِعَ النَّصَفَ»، يمكن عد تركهم الجهاد حجة عليهم فيما يعدُّ الذل والبلاء والخسف نتائج لتلك الحجة. إن ترك أصحابه الجهاد باختيارهم ورغبتهم هو السبب الرئيس الذي جرّ عليهم جملة من النتائج الوخيمة، إذ ألبسهم الله ثوب الذل وعمّ فيهم البلاء، وتصاغروا وتضاءلت قيمتهم ومنزلتهم، وأمسوا بحال قد ضربت عليهم الحجب فلا يبصرون شيئا، ولا يعرفون طريق الرشاد، وتحولت دولة الحق عنهم مع أنهم أصحابه، وذاقوا ألوان الذلّ والهوان، وصاروا لا يجدون من ينصفهم، كل هذه الأمور جرت عليهم لأنهم تركوا الجهاد الذي طالما دلّهم عليه الإمام فلم يتخذوه سبيلا.

وقد وظّف الإمام (عليه السلام) أسلوب الشرط الذي تتضح فيه علاقة جواب الشرط بفعل الشرط، وفعل الشرط هو ترك الجهاد أما جواب الشرط فهو النتائج التي ذكرها الإمام (عليه السلام) التي عادت عليهم بالذلّ والخسران، وفي هذا النصّ يبدو أيضا كيف أن الأقوال (الحِجج) كانت سبباً في حصول أقوال أخرى، وهناك ترابط وعلاقة حِجاجية واضحة بين الأقوال.

وفي قول الإمام (عليه السلام) «فَتَوَاكَلْتُمْ وَتَخَاذَلْتُمْ حَتَّى شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ» نجد أن النتائج قد بدأت تتوالد بعضها من بعض، وصار تركهم الجهاد سببا لنتيجة هي (تواكلهم وتخاذلهم)، ثم صار التواكلُ والتخاذلُ سبباً لنتائج أُخر بدأت تتوالى عليهم غارات الأعداء الذين أخذوا يمتلكون الأوطان ويمنعونهم عنها بينما يقف أصحاب الإمام (عليه السلام) متفرجين لا يردون الضيم عنهم. وهنا بدا توالي الأقوال المشتملة على الحجج اللغوية وعلى النتائج المستخلصة منها

أشد وضوحا.

أما في قول الإمام (عليه السلام) «حِينَ صِرْتُمْ غَرَضاً يُرْمَى يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ وَيُعْصَى اللهُ وَتَرْضَوْنَ» فتتقدم النتيجة وهي كونهم صاروا غرضا لمرمى الأعداء على المسببات وهي أنهم يُغار عليهم ولا يردون الغارات ولا يدفعوا الضيم والأذى عنهم، ويُغزونَ ولا يَغزونَ من بدأهم الغزو، وأمسوا بحالٍ يرون الخالق يُعصى في أرضه ومن عباده فيرضون بذلك؛ مما جرّ عليهم الويلات والثبور. ونجد أنّ الإمام قد منح في قوله هذا الرجحان والغلبة لأهل الشام، وأثبت لهم امتلاك زمام المبادرة وغزو بلاد المسلمين في أكثر من مكان، في حين نفى هذه الصفات عن أصحابه الغافلين اللاهين غير المدركين حجم الخطر الذي يداهمهم، مع أنّ الإمام (عليه السلام) ما انفك ينبههم ويبصرهم بعواقب تخاذلهم وقعودهم عن الجهاد الذي هو سبيلهم الوحيد لنيل عزتهم وانتصارهم على المعتدين.

لقد أدى تخاذل أصحاب الإمام (عليه السلام) عن الجهاد وتقاعسهم عن ردِّ كيد الأعداء وغزواتهم إلى أن وصفه أعداؤه بعدم معرفته بشؤون الحرب في قوله «قَالَتْ قُرَيْشٌ: إِنَّ ابْنَ أَبِي طَالِبٍ رَجُلٌ شُجَاعٌ وَلَكِنْ لَا عِلْمَ لَهُ بِالْحَرْبِ»، لكن الإمام ردّ قولهم باحتجاج راجح يدحض حجتهم بأمرين ؛ الأول: أنه لا يوجد في قريش من هو أشد مراساً ولا أقدم مقاماً في الحرب منه حتى وُصف (عليه السلام) بأنّه قتّالُ العربِ لشدة فتكه بالأعداء الكافرين في الحروب، وهذا قول من جنس الوقائع التي لا تنكر وفيها قيمة حجاجية كبيرة، ولا يمكن لهم أن ينكروها لأنهم شهدوا صولاته المبكرة في الإسلام، وكان أعداؤه يرتعدون منه حتى قيل له «بأي شيء غلبت الأقران؟ فقال عليه السلام: ما لقيتُ رجلاً إلّا أعانني على نفسه»[٨]، وهذا دليل واضح على شجاعته وعلى انهزام

الآخرين أمامه. والأمر الثاني: أنّه (عليه السلام) قد تصدى للحرب وهو شاب لم يبلغ العشرين حتى وردت الأخبار أنّ الرسول (صلّى الله عليه وآله) كان يستنهض أصحابه لقتال الأعداء فيخرج فيهم الإمام (عليه السلام) فيؤخرهُ الرسولُ (صلّى الله عليه وآله) لصغر سنه لكنه (عليه السلام) يصرُّ على الخروج.

ففي معركة الخندق أقدمت طائفة من مشاهير الشجعان وأكرهوا خيولهم على اقتحام الخندق بما فيهم نوفل بن عبدالله الذي عبر الخندق فقتله الإمام (عليه السلام) ثم عبر عمرو بن ود العامري وهو من فرسان العرب المعدودين، وقد ردّ الرسول (صلّى الله عليه وآله) عليا أول الأمر اشفاقا عليه، لأنه لم يبلغ العشرين بعد ولم يستكمل قوته آنذاك، لكنّ عليا (عليه السلام) أصرّ على مبارزته، فقال له الرسول (صلّى الله عليه وآله): إنه عمرو فردّ (عليه السلام): وأنا عليّ[٩]، وكان عمرو معتدا بنفسه كثيرا إلى الحد الذي يقول فيه للإمام علي (عليه السلام): يا ابن أخي لا أحبُّ أن أقتلك فيرد عليه الإمام (عليه السلام): ولكني والله أحبُّ أن أقتلك، فأخذت عمرو بن ود الحميةَ فعبر الخندق وقتله الإمام (عليه السلام)، فقال الرسول (صلّى الله عليه وآله) حينها: لا فتى إلّا عليّ ولا سيف إلّا ذو الفقار[١٠]. ومن يقتل رجلا شجاعا مثل عمرو لا شك أنه أشجع منه. فإذا كان الإمام قد ولج الحرب وهو لم يبلغ العشرين بهذه الشجاعة فكيف يكون وهو يقترب من الستين وقد عرف الحرب وعرفته ميادينها وخبر فنونها.

لذلك ليست العلة فيه (عليه السلام) بل العلة في عدم طاعة أصحابه له، والرأي السديد والحزم والشجاعة ومعرفة فنون الحرب موجودة في شخص الإمام (عليه السلام) بما لا يستحق الإثبات، وهذه قد لا تظهر في بعض الأحداث عندما لا يجد في

أصحابه الهمة والإقدام لتحقيق الهدف. وهذه الحال موجودة في مقامات ومواضع مختلفة، ففي الخطبة الشقشقية مثلا نجد موقفا مشابها لهذا من قضية الخلافة بعد وفاة الرسول (صلّى الله عليه وآله) وقد أقبل عليه العباس بن عبد المطلب وأبو سفيان يشيرون عليه أن يطالب بالخلافة فوجد نفسه (عليه السلام) بين أن (يصول بيد جذّاء) وهي كناية عن قلة الناصر أو ضعفه، أو أن يصبر على (طخية عمياء) تجرّ الويلات على المسلمين وتبدو آثارها على الكبير فيهرم أو على الصغير فيشيب[11]، وبعد إجالة الفكر وإدراك قلة الناصر آثر الصبر وتجرع المرارة والألم كمن في حلقه شجى فآثر مصلحة الإسلام على نيل الخلافة.

حجج مقارنة: وفيها يبدو الحجاج في خطاب الإمام (عليه السلام) حجاجا مستندا إلى فكرة المقارنة بين أمرين أو موقفين، ومنها قوله (عليه السلام): «فَيَا عَجَباً،! واللهِ يُمِيتُ الْقَلْبَ وَيَجْلِبُ الْهَمَّ مِنَ اجْتِمَاعِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ عَلَى بَاطِلِهِمْ وَتَفَرُّقِكُمْ عَنْ حَقِّكُمْ فَقُبْحاً لَكُمْ وَتَرَحاً»، الذي نجد فيه الإمام (عليه السلام) محاججا أصحابه من خلال المقارنة بين موقف أصحابه وموقف أعدائه، وجوهر المقارنة يبدو أعظم تأثيرا بوجود القرينتين (باطلهم، وحقكم)، والمؤلم لديه (عليه السلام) أنّ أعداءَهُ قد اجتمعوا وتوحدوا مع أنهم على باطل بينما تفرّق أصحابه مع أنهم على حق، والأجدر بهم أن يجتمعوا ويتآزروا ويرصوا صفوفهم لأنهم أصحاب قضية تستحق الوقوق والتضحية بالنفس، والإمام يدرك أن كونهم أصحاب حق لا يجلب لهم النصر ما داموا متفرقين متقاعسين.

وهذه الحجة المقارنة متجسدة في قوله (عليه السلام): «يُغَارُ عَلَيْكُمْ وَلَا تُغِيرُونَ وَتُغْزَوْنَ وَلَا تَغْزُونَ»، والمقارنة هنا حاصلة بين موقفهم القابل للغارات من دون أن يردوها وبين موقف الأعداء يغيرون عليهم،

ثم يقبلون غزو الأعداء لهم فلا يردون الغزوات، لذلك فهم خاسرون لا محالة.

إنّ مثل هذا الحجاج الذي أساسه المقارنة يبدو ناجعا لأن المقارنة غالبا تجعل الأمور أكثر وضوحا، والأشياء قد نحتاج أحيانا لكي نقربها إلى أفهام الناس أن نقرنها بأضدادها كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء، وهذه المقارنة يريد منها الإمام إغاضة أصحابه واستفزازهم والسخرية منهم في محاولة لتحريك الهمة والحماس نحو الجهاد.

حجج وقائع: وهي حجج أشبه ما تكون بقوانين أو مبادئ راكزة في صحتها لأنها مبنية على قناعات ثابتة لدى الإمام، وناجمة عن وعي كبير بما في نفوس المسلمين، وإدراك لسنن الحياة وقوانينها، ولأنها تشتمل على مسلمات وأفكار مشتركة بينهم بوصفهم أفراد ينتمون إلى بيئة واحدة يجمعهم الأسلام، ومن هذه الحجج ما ورد في قوله (عليه السلام) لأصحابه «اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ فَوَاللهِ مَا غُزِيَ قَوْمٌ قَطُّ فِي عُقْرِ دَارِهِمْ إِلَّا ذَلُّوا» وهذه حجة ناجمة عن يقين ثابت بأنّ من يغزى في عقر داره يُذل لا محالة، وهذا مبدأ حجاجي لا يمكن إنكاره، وقد أكد ذلك القول بقرينة (قط) مما يعني أنّ هذا الحكم لا يمكن أن يتسرب إليه الوهن والشك. ونلاحظ أن بنية النصّ اللغوية قد اشتملت على أسلوبين من أساليب التوكيد، هما التوكيد بالقسم (والله)، والتوكيد بالقصر (بالنفي والاستثناء) (ما و إلّا)، وهذا التوكيد جعل الحجاج أقوى في قيمته الحجاجية مما لو كان مفتقدا للتوكيد. فصار القول يحمل حجتين في وقت واحد؛ الحجة المنبثقة من مضمون القول، والحجة المنبثقة من بنية التوكيد.

وهناك حجة واقعية أخرى مبنية على حجاج آخر أساسه اختيار وقت الحرب، بعد أن أبدوا عجزهم عن السير لقتال الأعداء في الصيف لحرارته وفي الشتاء لبرودته فأجابهم (عليه

السلام): «ذَا كُنْتُمْ مِنَ الْحَرِّ وَالْقُرِّ تَفِرُّونَ فَأَنْتُمْ والله مِنَ السَّيْفِ أَفَرُّ» فالإمام (عليه السلام) صرح بهذا الحكم الواقعي بعد أن خبر تخاذلهم وهروبهم من قتال الأعداء، وما اعتذارهم بالحر والبرد إلّا أعذار واهية لا يمكن أن يصدقها الإمام (عليه السلام)، والواقع يؤكد هذه الحقيقة فالذي يتهرب بحجة حرارة الصيف وبرودة الشتاء سيكون نصيبه الخسران لا محالة. والترابط بين فعل الشرط وجواب كان قد جعل العلاقة الحجاجية أوثق وأشد تماسكا. أما القسم (والله) فهو مما يزيد القول قوة وصحة في مضمونه.

حجج استدلالية: وهي حجج أساسها الاستدلال بأقوال سابقة صدرت منه (عليه السلام) ينبههم فيها ليلقي الحجة عليهم، ومنها قوله: «أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً». فالإمام أراد أن يلقي بالحجة عليهم لكي لا يتذرعوا بعدم علمهم أو درايتهم بما ستؤول إليه الأمور، فنبههم إلى ضرورة قتال الأعداء؛ لأنهم إن لم يقاتلوهم سيبادر الأعداء إليهم فيغلبونهم، لذلك دعاهم وأكثر من دعوتهم وفي أوقات وأحوال مختلفة، وقد عبّر عنها بالقرائن (ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً) وهي كناية عن كثرة دعواته بمختلف الظروف والأحوال، وقد أكد حجته الاستدلالية هذه بمؤكدين هما (إنّ) و(قد) ليدفع به انكارهم وليكون الكلام مؤكدا ثابتا في دلالته. وليحمل في طياته حجاجا آخر منشؤه بنية التوكيد التي تُعَدُّ قيمة حجاجية أخرى.

وهناك نصّ آخر يقول فيه الإمام (عليه السلام): «اغْزُوهُمْ قَبْلَ أَنْ يَغْزُوكُمْ»، وهذا القول لا يحمل ضرورة الغزو فحسب بل يحمل ضرورة الابتداء به قبل العدو، لأن في ذلك دلالة امتلاك الحزم والمبادرة والقوة، بينما يكون نصيب الطرف الآخر الذل والهوان والخسران. لذلك كان الإمام (عليه السلام) يؤكد هذه القضية مرارا

وتكرارا لكي يزيل أعذارهم التي يتذرعون بها.

حجج حوارية: وهي حجج قوامها الحوار بينه (عليه السلام) وبين أصحابه وإن كان الكلام كله صادرا من الإمام (عليه السلام)، وتتمثل هذه الحجة في قوله: «فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ قُلْتُمْ هَذِهِ حَمَارَّةُ الْقَيْظِ أَمْهِلْنَا يُسَبَّخْ عَنَّا الْحَرُّ وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي الشِّتَاءِ قُلْتُمْ هَذِهِ صَبَارَّةُ الْقُرِّ أَمْهِلْنَا يَنْسَلِخْ عَنَّا الْبَرْدُ».

في هذا النصّ نجد أمرا صادرا منه (عليه السلام) بقتال الأعداء في وقت الصيف فيعتذروا عنه بشدة حرارة الصيف فيستمهلوه بان يزول الصيف، ولكي يلقي الحجة عليهم أمرهم بالسَّير إلى قتال الأعداء في وقت الشتاء، فيعودوا ليعتذروا منه بشدة البرد ليستمهلوه هذه المرة ان يزول عنهم البرد. والإمام يدركُ تماماً في هذا الحجاج الحواري أنّ هذه مجرد أعذار يتهربوا بها من القتال، لكنه فضل أن يجاريهم لكي يستنفذ أعذارهم فيلقي باللائمة عليهم عندما يخسروا الحرب، أو تصيبهم مصيبة، ولكي يكسب حجاجه معهم ويقنعهم ببطلان حججهم من دون أن يعمد إلى فرض اطروحاته فرضا بمنطق القوة والجبر، بل بمنطق الحجاج الموضوعي الرصين، وعن طريق مخاطبة قدراتهم العقلية. فلا يبدو الإمام (عليه السلام) منحازا لفكرته ورأيه متأثرا بعاطفة أو مزاج شخصي، لكي يزيل الشك عمّن يروم الشك بموقفه وحجاجه. وهو أيضا يروم ان يشعرهم بالذنب من جراء تهربهم وافتعال الأعذار المختلفة لكي لا يخرجوا للجهاد، وهو يدرك تماما مواقفهم المترددة وخذلانهم، لكنه يريد إلقاء الحجة عليهم والسخرية من مواقفهم.

إنّ خطاب الإمام (عليه السلام) هذا لا يعنى فقط بنقل وجهة نظره إلى الآخر المتلقي بل يراعي مقامه فيجاريه في حججه وأعذاره، لأنه من نوع الخطاب التوجيهي الذي يأخذ بالحسبان ردة

فعل المتلقي بأن يسعى المتكلم إلى إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرته بـ(أن يجرد من نفسه ذاتا ثانية ينزلها منزلة المُعترِض على دعواه فينظر في فعل التلقي ويبني أدلته وفقا لذلك مُستبِقا استفساراته واعتراضاته ومستحضرا مختلف الأجوبة عليها ومستكشفا إمكانات تقبلها واقتناع المخاطَب بها»[١٢]. وفي هذا إعطاء أهمية لدور المتلقي في العملية الحجاجية.

تجليات صحة حجاجه ونتائجه

هناك مجموعة من النصوص والعبارات التي تمثل تجليا واضحا لصحة حجاج الإمام مع أصحابه، منها قوله: «شُنَّتْ عَلَيْكُمُ الْغَارَاتُ وَمُلِكَتْ عَلَيْكُمُ الْأَوْطَانُ وَهَذَا أَخُو غَامِدٍ قَدْ وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ وَقَدْ قَتَلَ حَسَّانَ بْنَ حَسَّانَ الْبَكْرِيَّ وَأَزَالَ خَيْلَكُمْ عَنْ مَسَالِحِهَا وَلَقَدْ بَلَغَنِي أَنَّ الرَّجُلَ مِنْهُمْ كَانَ يَدْخُلُ عَلَى الْمَرْأَةِ الْمُسْلِمَةِ وَالْأُخْرَى الْمُعَاهِدَةِ فَيَنْتَزِعُ حِجْلَهَا وَقُلُبَهَا وَقَلَائِدَهَا وَرُعُثَهَا مَا تَمْتَنِعُ مِنْهُ إِلَّا بِالِاسْتِرْجَاعِ وَالِاسْتِرْحَامِ ثُمَّ انْصَرَفُوا وَافِرِينَ مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ». وهو نصّ يضمُ واقعة حدثت وهي أكثر تأثيرا وقيمة في الحجاج من غيرها من الوقائع، لأنها واقعة مشاهدة ومحسوسة من قبل المتكلم والمتلقي، ولا يمكن إنكارها. هذا النصّ يمثل مصداقية حِجاجه (عليه السلام) مع أصحابه، فهو يثبت هزيمتهم بسبب خذلانهم وذلهم فأغار عليهم الأعداء وامتلكوا بعض ديارهم وقتلوا وانتهكوا الحرمات وسبوا ونهبوا حلي النساء التي لم تجد سوى أن تسترحمهم وتستعطفهم ليرجعوا إليها حليها أو ليكفوا شرهم عنها، ويزيد من ألم الإمام أن الأعداء قد نالوا نصرهم وغنموا وافرين من دون أن ينالهم جرحٌ أو يسيل منهم دمٌ، وفي هذا دليلٌ واضحٌ على ذل أصحابه الذين لا يستطيعون أن يردوا الاعتداء عنهم ولا أن يلحقوا بالعدو أي ضرر يذكر. وقد نبّه الإمام أنّ هذه النتائج ستحصل حتما وحذّر منها وقدّم مسوغاتها، لكن لم يسمعوها،

أو سمعوها لكنهم آثروا الراحة المفضية إلى الذل والهوان والخسران.

ويمكن أن تضم نتائج الحجاج الشعور بالألم والحسرة الذي ألمّ بالإمام علي (عليه السلام) من جراء تقاعس أصحابه وقعودهم عن الجهاد، ويتجسد هذا الشعور في قوله: «لَوَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَرَكُمْ وَلَمْ أَعْرِفْكُمْ مَعْرِفَةً وَاللهَّ جَرَّتْ نَدَماً وَأَعْقَبَتْ سَدَماً.قَاتَلَكُمُ اللهُ لَقَدْ مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً وَشَحَنْتُمْ صَدْرِي غَيْظاً وَجَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً وَأَفْسَدْتُمْ عَلَيَّ رَأْيِي بِالْعِصْيَانِ وَالْخِذْلَانِ»، هذا النصّ كفيل ببيان مقدار الألم الذي ملأ قلبه بالقيح وصدره بالغيظ، حتى صار يتنفسه كما يتنفس الهواء، وحتى بدا رأيه للأعداء ضعيفا أو واهنا بسبب عصيان أصحابه له بعدم تطبيق أوامره ونواهيه،ولَعَلّ غاية الحِجاج «أن يجعل العقول تُذعنُ لما يُطرح عليها أو تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجح الحجاج ما وُفِق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب أو هو ما وُفِق على الأقل في جعل السامعين مهيئين لذلك العمل في اللحظة المناسبة»[١٣].

البنية اللغوية

لا يمكن بحال ما تجاوز فعالية البنية اللغوية في الحجاج لأنه سلاح فعال في تحديد نوع الأسلوب المتبع في عرض الحجة فيزيد قوة الحجج اثباتا أو نفيا، لأن «الحِجاج ليس إلّا استغلال لما في الكلام من قوة وثراء»[١٤]. وللغة قدرات كبيرة في الإقناع لما تتوافر عليه من بنيات متنوعة تمتلك قوة حجاجية، و» اللغة تسعى إلى تكثيف القول بما تنتجه من آليات وأدوات تجعل من الواضح والخفي أسئلة مختلفة ومتنوعة»[١٥]. لذلك لا بدَّ من عناية خاصة بالبنية اللغوية التي يتمّ بها عرض الحِجاج، والحِجاج نظرية وضع أسسها وحدد منطلقاتها المنهجية اللساني الفرنسي أزفالد ديكرو وبُنيت أصلا على مبدأ عام هو أننا دائما

نتكلم بهدف التأثير، لذلك فإن اللغة تحمل وظيفة حجاجية تتمثل في بنية الأقوال وفي المعنى وفي كل المستويات اللسانية للغة صوتية كانت أو صرفية أو معجمية أو تركيبية أو دلالية[١٦]. فاللغة تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية، بمعنى أن بنية الأقوال تمتلك مؤشرات كثيرة تؤكد هذه الوظيفة وتبرهن عليها.

ويبرز دور الأساليب البلاغية واضحا في الحجاج من خلال الصور البيانية التي تعمل على تأسيس فعل الحجاج وإغنائه، فـ (الصورة تقوم مقام الحجة وتعوضها تبعا لحال المخاطب)[١٧]، ولهذه الصور البيانية وظائف تأثيرية وحجاجية، ومن متابعة طبيعة خطاب نلمس توظيفا لفنون البيان بشكل واضح منها استعمال الكناية الذي تجسّد في عدة عبارات منها:

* «أَلَا وَإِنِّي قَدْ دَعَوْتُكُمْ إِلَى قِتَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَيْلًا وَنَهَاراً وَسِرّاً وَإِعْلَاناً»: كناية عن كثرة دعواته لهم لقتال الأعداء، وفي ظروف وأحوال مختلفة.

* «مَا نَالَ رَجُلًا مِنْهُمْ كَلْمٌ وَلَا أُرِيقَ لَهُمْ دَمٌ»: كنايتان عن تمكن الأعداء من غزو الأنبار وممارستهم السلب والنهب من دون أن يستطيع أحد من أتباعه (عليه السلام) الرد عليهم.

* «أَمَرْتُكُمْ بِالسَّيْرِ إِلَيْهِمْ فِي أَيَّامِ الْحَرِّ»: ففي (السير إليهم) كناية عن قتالهم، وقتال الأعداء مستلزم غالبا السير إليهم.

* «ربّاتِ الحِجَالِ»: كناية عن النساء.

* «لَقَدْ نَهَضْتُ فِيهَا وَمَا بَلَغْتُ الْعِشْرِينَ»: كناية عن دخوله معترك الحرب مبكراً.

ومعلوم أن المعنى الكنائي الذي ذكرناه بعد هذه النصوص هو المقصود وهو المراد، لكن مع جواز إرادة المعنى الحرفي للكلمات. ولَعَلَّ من قيمة الكناية دلالياً أنها تقدم المعنى مع الدليل على اثباته. وقد بين الجرجاني فضل الكناية فقال: «هذا فن من القول دقيق المسلك لطيف المأخذ...

بدت هناك محاسن تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف... وكما أنّ الصفة إذا لم تأتك مصرحاً بذكرها، مكشوفا عن وجهها، ولكن مدلولا بغيرها، كان ذلك أفخم لشأنها، وألطف لمكانها، كان إثباتك الصفة للشيء تثبتها له، إذا لم تلقه إلى السامع صريحا، وجئت إليه من جانب التعريض والكناية والرمز والإشارة كان له من الفضل والمزية، ومن الحسن والرونق ما لا يقل قليله ولا يجهل موضع الفضيلة فيه»(١٨).

وفي المجاز وجدنا النصوص الآتية:

- « ضُرِبَ على قَلْبِهِ بالإِسْهَابِ»: مجاز في (قلبه) وأراد: بصره، فقد ضربت عليه الحجب بحيث لا يبصر.
- « وهذا أخو غامدٍ» مجاز وأراد شخصا بعينه هو سفيان بن عوف الذي بعثه معاوية بن أبي سفيان مع جماعة من قبيلة غامد من اليمن، والعلة أنه من غامد.
- «وَرَدَتْ خَيْلُهُ الْأَنْبَارَ» مجاز عقلي في اسناد الورود على الأنبار إلى الخيل، والمراد رجال بني غامد الذين يمتطون ظهور هذه الخيول.
- والمجاز يبدو أكثر تأثيرا على القارئ من الكلام على وجه الحقيقة، لأن المتلقي يصل إليه بعد إدراك لطبيعة العلاقة اللغوية التي سوغت مجيء المجاز، عكس الكلام المباشر، لذلك يكون المجاز أوقع في النفس وأجمل.

وقد أشار القدماء إلى قيمة المجاز إذ قال ابن رشيق إنّ « المجاز في كثير من الكلام أبلغ من الحقيقة، وأحسن موقعا في القلوب والأسماع»(١٩). فيما ذكر عبد القاهر الجرجاني أنّ « من شأنه أن يفْخَمَ المعاني وتحدُث فيه النباهة [فهو] كنز من كنوز البلاغة ومادة الشاعر المفلق والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان»(٢٠).

ومن فن الاستعارة شخصنا الموارد الآتية:

- «أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ»: استعار الثوب للذل. فالذل ممكن أن يخيم على بعض الناس فيشتمل عليهم كما يلبس

الإنسان الثوب فيكون مشتملا عليه.

- «مَلَأْتُمْ قَلْبِي قَيْحاً»: استعار الامتلاء وهو لكل إناء أو وعاء أو غير ذلك يمكن أن يوضع فيه مادة ما، استعاره للقلب فجعله كالإناء والوعاء لكنه يمتلئ قيحا والمراد ألما.
- «جَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً»: استعار التجرع وهو لما يُشرب أو يؤكل أو يُتنفس استعاره للهم، فصار الإمام يتجرع الهم جرعة بعد جرعة كمن يتنفس الهواء.

والصور الاستعارية التي بدت في كلام الإمام رائعة في محتواها وذلك يعود إلى أن قوة الحجاج في المفردات تبدو في الاستعمالات الاستعارية أقوى مما نحسه عند استخدامنا لنفس المفردة بالمعنى الحقيقي[٢١]، وقوة الاستعارة تتأتى من قدرتها على التقريب بين عنصرين من نظامين مختلفين مع محاولة جاهدة لطمس ما بينهما من فروق خلافا للمقارنة كطريقة في الاستدلال باعتبارها تجري عادة بين عنصرين من نظام واحد، والاستعارة أكثر إقناعا من القياس بفضل المزج الذي تحدثه بين المستعار والمستعار له جاعلة بذلك توحّد العناصر المنتمية إلى أنظمة مختلفة أمرا مدركا[٢٢].

والكلام إذا كان استعاريا كان أثبت وأشد وطأة على المتلقي؛ لأنه من الصعب نفيه أو تكذيبه؛ لأنه يحمل في طياته أشبه بالحجة على المعنى والقوة في الدلالة، ففي قوله (عليه السلام) «أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ الذُّلِّ» جعل الهم مشتملا عليه ملازما له ملازمة اللباس للجسد، وهو لا شك أقوى وأكثر تأثيرا من أن يقول مثلا: إن من يترك الجهاد ذليل أو يعاني من الذل. وكذلك في قوله «جَرَّعْتُمُونِي نُغَبَ التَّهْمَامِ أَنْفَاساً» فهو أشد وقعا وأكثر دلالة في التعبير عن المعنى من أن يقول مثلا: إني مهموم أو أعاني من الهم. والفرق واضح كما يبدو.

إنّ امتلاك الإمام علي (عليه السلام) ناصية البيان والفصاحة أمر مفروغ منه، حتى شهد له بها الأعداء قبل

الأصدقاء حتى أنّ معاوية – وهو أشد مناوئيه- قد ردّ على محفن بن أبي محفن الذي قال له: جئتك من عند أعيا الناس فردّ معاوية: «ويحك! كيف يكون أعيا الناس! فوالله ما سنّ الفصاحة لقريش غيره»[٢٣]، وهذه المقدرة البيانية مكنته من الاستحواذ على عقول السامعين وشد نياط القلوب إليه، فيفصح عن غايته ورأيه بمنتهى التمكن، وقد زاوج في أساليب التعبير بين الحقيقة والمجاز حيثما استدعى المقام، ولذلك تمكن ان يُفْهِمَ السامعين ويفحمَ ويُقنع.

الخاتمة

* الحرص على توجيه الخطاب توجيها غايته إقناع الآخر بالفكرة المراد إيصالها بأوضح الأدلة والبراهين وأبسط الأساليب وأكثرها تركيزا وتكثيفا، لا بمنطق القوة والفرض والجبر، بل بمنطق الحجاج الموضوعي والعلمي.
* ما دام الحجاج موضوعيا ومنطقيا فقد استدعى ذلك التراتبية في عرض الحجج من خلال الترابط بين السبب والنتيجة والعلة بالمعلول. وبدا كل عنصر دلالي موظفا لصالح عنصر آخر.
* إنّ تبنّي موقف ما والتصريح به لم يكن وليد الانفعال الآني تحت ظرف ما، بل هو موقف نابع من حكمة وإيثار لمصلحة الإسلام والمسلمين على مصلحته الشخصية.
* إنّ خطاب الإمام (عليه السلام) موجّه لغاية تلوح في أكثر من موضع من خطبته، وهي محاولة تعديل سلوك المسلمين وتوجيهه بما ينسجم وقيم الإسلام التي دعا إليها الرسول الكريم محمد (صلّى الله عليه وآله).
* جاء الأسلوب منسجما تماما مع ما عرف عنه من امتلاك ناصية الفصاحة والبلاغة فاتسم أسلوبه بالإيجاز والكثافة الدلالية من دون الإخلال بإيصال المعنى.
* كانت البنية اللغوية بشتى صورها قوة حجاجية بحد ذاتها تزيد من قوة الحجاج وفعاليته.

الهوامش

(١) مدخل إلى الخطابة، أوليفي روبول المطابع الجامعية الفرنسية، ط٢، ١٩٩٤: ١٠٣.

(٢) مصنف في الحجاج-الخطابة الجديدة، برلمان و تيتيكاه، ١٩٩٢: ٥، نقلا عن : في نظرية الحجاج -دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١: ١٣.

(٣) م. ن: ٥٩.

(٤) استراتيجية الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤: ٤٥٦.

(٥) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث، بيروت: ٢/ ٧٤،الخطبة رقم (٢٧).

(٦) الحجاج- أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، عبد الله صولة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، مجموعة باحثين بإشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس: ٣٢٣.

(٧) ينظر: دراسات في الحجاج، سامية الدريدي الحسني، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠٠٩: ١٢١-١٢٢

(٨) شرح نهج البلاغة: ١٩/ ٢٢٦ رقم الحكمة: ٣٢٤.

(٩) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة: ١١/ ٦٦٠ و١٥/ ١١٧٢.

(١٠) ينظر:السيرة النبوية لابن هشام، عبدالملك بن هشام(ت٢١٣ هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٥٥: ٢/ ٢٢٥، والبداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ٤:١٩٨٨/ ٥٤، وروح البيان، اسماعيل حقي أبو الفداء (ت١١٢٧ هـ)، دار الفكر، بيروت: ٧/ ١٤٥.

(١١) تنظر الخطبة في شرح نهج البلاغة: ١/ ١٥١، الخطبة رقم (٣).

(١٢) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء: ٢٢٨.

(١٣) الحجاج- أطره ومنطلقاته وتقنياته، عبد الله صولة: ١/ ٣٥.

(١٤) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١: ٣٦.

(١٥) نظرية الحجاج في اللغة، شكري

المبخوت، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم: ٣٦٢.

(١٦) ينظر: الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب، بيروت، ط١، ٢٠١٠: ١٧

(١٧) في بلاغة الخطاب الإقناعي- مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية- الخطابة في القرن الأول نموذجا، محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٠١:١٩٨٦.

(١٨) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢: ١/ ٣٠٦.

(١٩) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١: ١/ ٢٦٥.

(٢٠) دلائل الإعجاز: ١/ ٢٩٤- ٢٩٥.

(٢١) ينظر: الاستعارة والحجاج، ميشال لوفرن، ترجمة: طاهر عزيز، مجلة المناظرة، ع/ ٤، ١٩٩١: ٨٧.

(٢٢)ينظر: مدخل إلى الخطابة: ١٩١.

(٢٣) شرح نهج البلاغة: ١/ ٢٥.

المصادر والمراجع

* استراتيجية الخطاب- مقاربة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، ٢٠٠٤.

* الاستعارة والحجاج، ميشال لوفرن، ترجمة: طاهر عزيز، مجلة المناظرة، ع/ ٤، ١٩٩١.

* البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت٧٧٤ هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٩٨٨.

* التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.

* الحجاج- أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج- الخطابة الجديدة لبيرلمان وتيتيكاه، عبد الله صولة، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، مجموعة باحثين بإشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.

* الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه، عبد الله صولة، دار الفارابي، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

* الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، مؤسسة الرحاب، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

* دراسات في الحجاج، سامية الدريدي

الحسني، عالم الكتب الحديث، إربد، ط١، ٢٠٠٩.

* دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢.

* روح البيان، اسماعيل حقي أبو الفداء (ت١١٢٧هـ)، دار الفكر، بيروت.

* السيرة النبوية لابن هشام، عبدالملك بن هشام(ت٢١٣هـ) تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر، ط٢، ١٩٥٥.

* شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد المعتزلي (ت ٦٥٦هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء التراث، بيروت.

* العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (ت٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٥، ١٩٨١.

* في بلاغة الخطاب الإقناعي- مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية- الخطابة في القرن الأول نموذجا، محمد العمري، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٦.

* في نظرية الحجاج –دراسات وتطبيقات، عبد الله صولة، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط١، ٢٠١١.

* اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

* مدخل إلى الخطابة، أوليفي روبول المطابع الجامعية الفرنسية، ط٢، ١٩٩٤.

* مصنف في الحجاج-الخطابة الجديدة، برلمان و تيتيكاه، ١٩٩٢.

* نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، ضمن كتاب أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية، مجموعة باحثين بإشراف: حمادي صمود، كلية الآداب، منوبة، تونس.